التعاون واجب ديني

التعاون أمر إلهي ، وكل أمر في القرآن الكريم ، وفي السنة الصحيحة يقتضي الوجوب ، وليس الدين عبادات شعائريةً ، فحسب ، بل إن الدين هو الحياة ، كما أرادها الله عز وجل ؛ صلاح الدين ، وصلاح الدنيا ، وصلاح الآخرة .

في الإنسان **نزعة فردية** تنطلق من حبه لوجوده ، ومن حبه لسلامة وجوده ، ومن حبه لكمال وجوده ، ومن حبه لاستمرار وجوده .

وفيه أيضاً **نزعة اجتماعية** تنطلق من نزعته الفردية ، لأن كثيراً من مطالب حياة الإنسان ، وحاجاته الجسدية والنفسية والفكرية لا تتم إلا عن طريق الجماعة ، كالأنس بالجماعة ، والشعور بالأمن والطمأنينة معها ، والتماس نصرتها ، والتقوي بها ، وتحقيق حاجاته ومصالحه من خلالها .

لكن **النزعة الجماعية** التي تنطلق من طاعة الإنسان لله عز وجل والتقرب إليه ، وراء أكثر الفضائل الخلقية ، فما من فضيلة يصل نفعها وخيرها إلى الآخرين إلا وفيها عنصر التخلي عن الأنا . . وفيها نوع من التضحية في سبيل المجموع ، كوَسيلة لنيل رضوان الله تعالى .

والرذائل الخلقية تنبع من فردية الإنسان ، وتفلته من منهج الواحد الديان ، **والفضائل الخلقية** تنبع من انصياعه لمنهج ربه ، والتقرب إليه بخدمة عباده .

الأنبياء ـ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ـ أعطوا كل شيء ، ولم يأخذوا من الجماعة شيئاً ، والذين على نقيضهم أخذوا كل شيء ، ولم يعطوا الجماعة شيئاً ، والذين هم بينَ بين ، أخذوا وأعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، وغيرهم ملكوا الرقاب بقوتهم .

إن جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المتعاون ، بخلاف العمل الفردي ، الذي لا يثمر إلا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدةً وضعفاً ، والنزعة الفردية تنمو معها رغبة قبيحة ، بتهديم أعمال الآخرين ، حرصاً على التفرد لنيل التقدير بين الناس ، ومع هذه الرغبة القبيحة ، تتبدد الأعمال الفردية نفسها ، أو تضيع ثمراتها ، فتحرم الإنسانية ثمرات الأعمال الجماعية وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية .

إن القوة الانفرادية ، مع القوة الانفرادية ، مجتمعتين تساويان أكثر منهما متفرقتين ، لأن عوامل الوهم والخوف والتخاذل تتسرب إلى الأفراد وتمتنع منها الجماعة .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

لأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولأنه مُكلف أن يعمرها بكل ما هو خير نافع ، ليكون هذا الإعمار ثمناً لسعادته الأبدية في الجنة ، ولأن مشيئة الله شاءت أن يُمكّن الإنسان من إتقان شيء ، بينما هو في حاجة إلى كل شيء ، إذاً كان التعاون ضرورة إيمانية ، وضرورة حياتية ، والتعاون حيادي ومطلق ، فيمكن أن يكون في الخير ـ صلاح الدنيا وصلاح الآخرة ـ كما يمكن أن يكون في الشر ـ في الإثم والعدوان ـ لذلك جاء الأمر الإلهي : **بالتعاون** مخصصاً ، بالبرِّ والتقوى ، والبرّ ـ كما قال المفسرون ـ صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، وتأكيداً لهذا التخصيص جاء النهي عن النقيض ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ، فكل من شارك في خير البشرية ، في دينها ودنياها ، مخلصاً لله عز وجل ، له نصيب من هذا الخير يناله في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .

وكل من شارك في عمل آثم ، يبعد الإنسان عن خالقه ، أو عدواني فيه إيذاء لأخيه الإنسان ، يناله العقاب في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما معاً .

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٣] .

في هذه الآية الكريمة يأمرنا الله جل جلاله أن نعتصم بحبله ، ونحن مجتمعون غير متفرقين ، وأصل الاعتصام : اللجوء إلى حبل الله ، إلى كتابه ، إلى سنة رسوله ، للاعتصام به ، وهذا يستلزم التمسك به ، والقبض عليه بشدة ، حتى يظفر المؤمنون باعتصامهم هذا بالنجاة من الهلاك ، والاعتصام بحبل الله لا يجدي أن يكون اعتصاماً فردياً ، بل لابد من أن يكون اعتصاماً جماعياً ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٣] .

وأكد ذلك بالنهي عن التفرق ، فقال تعالى عقب ذلك :

﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ .

[آل عمران : ١٠٣] .

ثم أجرى الله جل جلاله في هذا النص موازنةً بين ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها ، قبل الإسلام ، وما تحولت إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله إليهم :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

لقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام مجزأةً ، متفرقة ، متعاديةً فيما بينها ، وكانت على شفا حفرةٍ من النار بالشرك والظلم والعدوان ، فأصبح تجزؤها وحدةً ، وتفرقها اجتماعاً ، وعداوتها محبة ، فقد ألف الله بين قلوب أفرادها ، وجماعاتها بالإسلام ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

وما كان سببَ إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها ؛ يظل هو السبب ـ أبد الدهر ـ في إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها ، ولا يصلح آخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أولها .

الإسلام ردّ النفس الإنسانية إلى فطرتها الخيرة ، من التعاون والتناصر والتحابب ، ونهى عن التفاخر والتباغض ، وسوّى بين المسلمين ، وجعلهم إخوةً متحابين ، فأصبح المسلمون أمةً متعاونةً على الخير ، لا يفرق بين أفرادها لون ولا جنس ولا إقليم ولا مال ، وجاء التوجيه الإلهي يدفع المسلمين إلى هذا السلوك الإنساني الرفيع ، فقال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

لقد أنكر الإسلام النزعة الاستغلالية ، وقاوم السلبية ، ونبذ الأثرة والأنانية ، والتهافت المسعور على التقاط جهد الآخرين ، وأن يعيش الفرد على أنقاض الآخرين ، يجني قوته على ضعفهم ، وغناه على فقرهم ، ومجده على ذلهم ، وبين أن الناس جميعاً في حق الحياة ، وحق العمل ، وحق الكرامة ، سواء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »(١)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وفي آية لاحقة :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

توضح هذه الآية أن الإيمان ما إن يستقرّ في نفس المؤمن حتى يعبر عن ذاته بحركة خيرة نحو الآخرين ، وما لم تكن هذه الحركة

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد وهو صحيح .

الخيرة نحو الآخرين ، فهناك شك في وجود الإيمان أصلاً .

فالمؤمنون هاجروا وجاهدوا وآووا ونصروا ، لذلك هم كالجسد الواحد إن اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وإن لم يكن المؤمنون متناصحين ، متعاونين ، متباذلين ، متضامنين ، تكن فتنة في الأرض ، وفساد كبير ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

[الأنفال : ٧٢ـ٧٣] .

« عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ قَالَ فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ »[1] .

فالمسلم الحق يعمل من أجل المجموع ، ولا يعيش لذاته ، لكن أجره عند الله كبير ، قال تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد .

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الحديد : ٧] .

وفي صحيح مسلم : « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ »[1] .

لقد أسس النبي عليه الصلاة والسلام مجتمع المدينة ، وهو النموذج الأول للمجتمع الإسلامي على خلق التعاون ، فقد ترك المهاجرون بلدهم مكة ، وتركوا فيها أموالهم وكلّ ما يملكون ، وانتقلوا إلى المدينة وليس معهم شيء ، في حين كان الأنصار وهم أهل المدينة يملكون ويقيمون في بيوتهم ويعملون في أرضهم ، فأقام النبي عليه الصلاة والسلام التوازن بين الذين يملكون والذين لا يملكون عن طريق الأخوة الإيمانية التي تعني الحب والإيثار والبذل والعطاء ، ـ لا عن طريق القهر ـ ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، فصار كل أخوين يتعاونان ويتناصران ، ويتشاركان في السراء والضراء ، وكان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر ، يعرض عليه أن يقاسمه كل ما يملك .

لكنَّ الشيء المدهش أنه لم يستغل المهاجرون هذا السخاء ، بل إن الكثير منهم اتجه إلى السوق ، ليأكل من كد يمينه ، قال سعد بن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك .

الربيع لعبد الرحمن بن عوف : **يا أخي دونك نصف مالي فخذه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله في مالك ولكن دلني على السوق .**

وقد سجل القرآن الكريم هذه الصورة الرائعة للإيثار فقال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

لو تتبعنا أسباب العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ، بل بين أفراد مجتمع تربط بينهم عشرات القواسم المشتركة ، قال تعالى :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر :١٤] .

لو تتبعنا هذه الأسباب في كتاب الله عز وجل ـ **ولا ينبئك مثل خبير** والله تعالى هو الخبير ـ لوجدنا هذه الأسباب في **علتين** اثنتين ؛

الأولى : الخروج عن منهج الله عز وجل اتباعاً للهوى .

قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] .

والثانية : اتباع الشيطان .

قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

وكلا العلتين تجمعهما علة واحدة ، وهي أن الإنسان فردي بطبعه ، والفردية ـ من دون أن تُضبط بمنهج الله ـ وراء أكثر الرذائل الخلقية ، من أثرةٍ أو أنانية ، وغطرسة وعداوة وخيانة وإلحاف .

والجماعية تكليف إلهي أولاً ، وصبغة يصطبغ بها المؤمن من خلال اتصاله بالله ثانياً ، والروح الجماعية وراء أكثر الفضائل الخلقية من مؤاثرةٍ وتواضع ومحبة وإخلاص وإنفاق .

الناس رجلان ؛ رجل عرف الله ، فاتصل به ، وانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، ورجل غفل عن الله ، فتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي في الدنيا والآخرة .

الإنسان هو سيد المخلوقات ، وهو أفضل من يدرك أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجزى من التخاذل ، ومن طبيعة الحياة الإنسانية أن يتفاوت الناس في المواهب والملكات ، والجهود والطاقات ، فمنهم قوي ، ومنهم ضعيف ، منهم صحيح ، ومنهم سقيم ، منهم مستطيع ، ومنهم عاجز ، منهم عالم ، ومنهم جاهل ، منهم متقد الذكاء ، ومنهم محدود التفكير ، منهم غني وفقير ، منهم

قائد ومقود ، وتابع ومتبوع ، فإذا تُركت هذه الفروق وشأنها اتسعت الهوة وظهر التناقض الحاد بين أفراد المجتمع ، وأكل القوي الضعيف ، واستغل الغني الفقير ، فاختلت بنية المجتمع ، وانهار توازنه ، وسار في طريق الهاوية ، عندها تسفل الأهداف ، وتنحط الميول ، ويبيح الإنسان الشارد عن منهج الله لنفسه أكثر الوسائل قذارة لأشد الأهداف انحطاطاً ، عندها تكون أزمة الأخلاق المدمرة التي تسبب الشقاء الإنساني ، وحين ذلك تفسد علاقة الإنسان بأخيه ، فتكون الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، فتعيش الأمة عندها أزمةً حضارية تعيق تقدمها ، وتقوض دعائمها ، وما يجري في العالم من حولنا أكبر دليل على ذلك .

لذلك ترى المؤمن إنساناً متميزاً ، يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، يقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحتكم إليها ، من دون أن يسخرها لمصالحه ، أو يسخر منها ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه القلوب .

المؤمن شخصية فذة ، لأن الإيمان درجة علمية ، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى وانسجم معها ، والإيمان درجة أخلاقية ، فسلوك المؤمن تحكمه منظومة من القيم الأخلاقية ، والإيمان درجة جمالية ، ففي قلبه من السعادة ـ من خلال اتصاله بالله ـ ما لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم .

* * *

الحظوظ التي ينالها الإنسان في الدنيا حيادية ، يمكن أن تُوظف في الحق كما يمكن أن توظف في الباطل ، يمكن أن تسخر في الخير كما يمكن أن تسخر في الشر ، يمكن أن تكون للإنسان سلماً يرقى بها أو دركات يهوي بها ، هذا **نعيم بن مسعود** ، كان فتىً في الجاهلية فتىً يقظ الفؤاد ، ألمعي الذكاء ، ولاّجاً خرَّاجاً ، يحسن التصرف ، لا تعوقه معضلة ، ولا تُعجزه مشكلة ، كان صاحب صبوة وخدين متعة ، ولما بعث الله النبي ، ﷺ ، برسالة الإسلام إلى العالمين ، أعرض نعيم عن هذا الدين الجديد أشد الإعراض ، خوفاً من أن يحول هذا الدين بينه وبين متعه ولذاته ، لكن نعيم وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام إلى خصوم المسلمين مدفوعاً إلى إشهار السيف في وجوههم ، لكن **لحظة تفكير سليم** ، ولحظة محاكمة منطقية ، ولحظة تأمل دقيق ، ولحظة مراجعة مع النفس صادقة ، ولحظة تبصر عميق ، وقد تكون هذه اللحظة سبب سعادة أبدية ، وفوز عظيم ، قد تنقل هذه اللحظة التي فيها صدق مع النفس ، قد تنقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة ، من وحول الشهوات إلى جنات القربات ، من سلوك المجرمين ، إلى بطولات الصديقين .

خرجت قريش بقضها وقضيضها ، بخيلها ورجلها ، بكل ما تملك ، بكل وزنها ، بكل ثقلها ، بكل طاقتها ، بقيادة أبي سفيان ابن حرب متجهة شطر المدينة .

كما خرجت غطفان من نجد بعدتها وعددها ، بقيادة عيينة بن حصن ، ومعهم نعيم بن مسعود متجهة شطر المدينة .

ولا ندخل في تفصيل معركة الخندق التي أراد خصوم المسلمين من خلالها استئصال المسلمين عن آخرهم .

وفوق كل ذلك نقضت بنو قريظة عهدها مع النبي ﷺ ، وانضمت إلى الأحزاب ، وأصبحت قضية الدين الجديد ، قضية يكون أو لا يكون ، قضية ساعات ـ **هنالك ابتلي المؤمنين وزلزلوا زلزالاً شديداً** ـ .

وفوق كل ذلك انسل المنافقون من ساحة المعركة وقالوا : **ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً** ، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا بضع مئات من المؤمنين الصادقين **الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** .

وفي ليلة من ليالي الحصار الذي دام عشرين يوماً ، كان نعيم مستلقياً على فراشه في خيمته في معسكر المشركين ، يتقلب في مهاده أرقاً وفجأة سألته نفسه قائلةً : ويحك يا نعيم . . ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة من نجد لحرب هذا الرجل ومن معه ؟ إنك لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب ، ولا حمية لعرض مغصوب ، ولا لدم مسفوك ، وإنما جئت تحاربهم لغير سبب معروف ، أيليق يا نعيم برجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيُقتل أو يقتل لغير سبب ، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح ـ ولم يكن مؤمناً بأنه نبي كريم ـ الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟ ويحك يا نعيم ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه ، الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق ؟!

هذا الحوار الذاتي يحتاجه كلٌّ منا كل يوم . .

اتسم هذا الحوار الذاتي بالصدق والوضوح ، وكان هذا الحوار الذاتي سبب سعادته الأبدية ، اتخذ نعيم عقب هذا الحوار الصادق قراراً حاسماً وحازماً ، ونفذه مباشرة ، تسلل من معسكر قومه ، تحت جنح الظلام ، ومضى يحث الخطى إلى النبي ﷺ فلما رآه النبي ماثلاً بين يديه ، قال : نعيم بن مسعود !؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : ما الذي جاء بك هذه الساعة ؟ قال : يا رسول الله جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنك عبد الله ورسوله ، وأن ما جئت به هو الحق ، ثم قال : لقد أسلمت يا رسول الله ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« **أنت فينا رجل واحد ، فاذهب إلى قومك ، وخذل عنا ـ إن استطعت ـ فإن الحرب خدعة** . . »[1] .

هذا نموذجٌ من تعاون الفرد مع المجموع .

وسيوظف الآن نعيم عقله ، ولسانه ، وإمكاناته ، ومكانته لصالح هذا الدين الجديد ، فقال : يا رسول الله سترى ما يسرك إن شاء الله .

مضى نعيم بن مسعود من توه إلى بني قريظة ، وكان لهم من قبل صاحباً ونديماً ، وقال لهم : يا بني قريظة لقد عرفتم ودّي لكم وصدقي في نصحكم قالوا : نعم والله فما أنت عندنا بمتهم ، قال : إن قريشاً وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم ، قالوا : كيف ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي.

قال : هذا البلد بلدكم وفيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم ، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره ؛ أما قريش وغطفان فبلدهم وأموالهم وأولادهم ونساؤهم في غير هذه البلد وقد جاؤوا لحرب محمد ودعوكم لنقض عهده ومناصرتهم عليه فأجبتموه ، فإن أصابوا نجاحاً في قتاله ركبوا عليكم ـ أي اغتنموه ـ وإن أخفقوا في قهره ، عادوا إلى بلادهم آمنين ، وتركوكم وحدكم ، فينتقم محمد منكم شر انتقام ، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لكم به ، إذا خلا بكم ؛ قالوا : صدقت والله ، وهذا رأي حصيف ، قال : الرأي عندي ألا تقاتلوا معهم ، حتى تأخذوا طائفة من أشرافهم ، وتجعلوهم رهائن عندكم وبذلك تحملونهم على قتال محمد معكم ، إلى أن تنتصروا عليه ، أو يفنى آخر رجل منكم ومنهم ، قالوا : والله أشرت ونصحت ، بارك الله بك .

ثم خرج من عندهم ، وأتى أبا سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال له ولمن معه : يا معشر قريش ، قد عرفتم ودّي لكم ، وعداوتي لمحمد ، قالوا : نعم ، وقد بلغني أمر ، فرأيت حقاً علي أن أفضي به إليكم نصحاً لكم ، على أن تكتموه ولا تذيعوه ، قالوا لك علينا ذلك ، قال : بنو قريظة قد ندموا على مخاصمتهم محمد ، فأرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا أن نعود إلى معاهدتك ، ومسالمتك ، فهل يرضيك ـ يا محمد ـ أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً كثيراً من أشرافهم ونسلمهم إليك لتضرب أعناقهم ، ثم ننضم إليك في محاربتهم حتى نقضي عليهم ؛ فأرسل إليهم النبي : أي نعم ؛ فإن بعثت اليهود يا أبا سفيان تطلب منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم أحداً ، قال أبو سفيان : نِعم

الحليف أنت ، بارك الله بك ، وجزيت خيراً أنقذتنا .

ثم خرج نعيم من عند أبي سفيان حتى أتى قومه غطفان فحدثهم بمثل ما حدث به أبي سفيان وحذرهم مما حذره منهم .

أراد أبو سفيان أن يختبر بني قريظة ، فأرسل إليهم ابنه ، فقال لهم : إن أبي يقرئكم السلام ، ويقول لكم : إنه قد طال حصارنا لمحمد وأصحابه ، حتى مللنا ، وإننا قد عزمنا على أن نقاتل محمداً ، ونفرغ منه ، وقد بعثني أبي إليكم ليدعوكم إلى منازلته غداً ، فقالوا له : إن اليوم يوم سبت ، ونحن لا نعمل فيه شيئاً ، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا سبعين من أشرافكم ، وأشراف غطفان ، حتى يكونوا رهائن عندنا ، فإنا نخشى ـ إن اشتد عليكم القتال ـ أن تسرعوا إلى بلادكم ، وتتركونا لمحمد وحدنا ، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لنا به .

لقد نجحت الخطة مئة بالمئة ؛ فما إن عاد ابن أبي سفيان إلى قومه وأخبرهم بما سمعه من بني قريظة ، حتى قالوا بلسان واحد : خسىء أبناء القردة والخنازير ، والله لو طلبوا منا شاة رهينةً ما دفعناها إليهم .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

لقد نجحت خطة نعيم في تمزيق صفوف الأحزاب وتفريق كلمتهم ، وأرسل الله على قريش وحلفائها ريحاً صرصراً اقتلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وسفعت وجوههم ، وملأت أعينهم تراباً ، فلم يجدوا مفراً من الرحيل . .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

هذا درس إيماني بليغ ، **إذا كان الله معنا فمن علينا ، وإذا كان الله علينا فمن معنا** ، ولكن معية الله ، التي نعقد عليها الآمال في أن تنصرنا على عدو متغطرس ، سلب الأرض ، وشرد الشعب ، ونهب الثروات ، وانتهك الحرمات ، ودنس المقدسات ، وأنشأ المستوطنات ، هذه المعية التي نعلق عليها كل الآمال لها ثمن ، ثمنها موضح في القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] .

ولم يطالبنا ربنا بإعداد القوة المكافئة ، بل بإعداد القوة المتاحة ، فقال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ

عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

* * *

ما دام الحديث عن التعاون ، وهو أمر تكليفي ، كلف به هذا المخلوق الأول ، المكرم ، الإنسان ، إن هذا يذكرنا بأروع صورة من صور التعاون في **مجتمع النمل** ، ولكن بأمر تكويني ، لا بأمر تكليفي .

النملة حشرة اجتماعية راقية ، موجودة في كل مكان ، وفي كل وقت ، بل إن أنواع **النمل** تزيد على تسعة آلاف نوع ، وبعض النمل يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة ، وبعض النمل يحيا حياة الترحال كالبدو تماماً ، وبعضه يكسب رزقه بجده وسعيه ، وبعضه يكسب رزقه بالغدر والسيطرة ، والنمل حشرة اجتماعية تموت إذا عُزلت عن أخواتها ، ولو توافر لها غذاء جيد ، ومكان جيد ، وظروف جيدة ، كالإنسان إذا عزلته في مكان ، بعيد عن الضوء ، والصوت ، والساعة والزمن ، والليل والنهار ، عشرين يوماً ؛ فإنه يفقد توازنه العقلي .

والنملة تعلم الإنسان درساً بليغاً في التعاون ، فإذا التقت نملة جائعة بأخرى شبعى ، تعطي الشبعى الجائعة خلاصات غذائية من جسمها ففي جهازها الهضمي جهاز ضخ تُطعم به ولندقق في حديث

رسول الله ﷺ : « **والله ما آمن ، والله ما آمن ، والله ما آمن ، من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم** » ومن لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم .

للنمل ملكة كبيرة الحجم ، مهمتها وضع البيوض ، وإعطاء التوجيهات ، ولها مكان أمين في مساكن النمل ، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة ، والنملات العاملات لها مهمات متنوعة :

من مهمات العاملات **تربية الصغار** ، وهذا يشبه قطاع التعليم ، وفي النمل **عساكر** لها حجم أكبر ، ولها رأس صلب ، كأن عليه خوذة ، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة الملكة ، وحفظ الأمن ، وردّ العدوان ، ومن مهمات العاملات **تنظيف المساكن** والممرات ، وهذا يشبه قطاع البلديات ، ومن مهمات العاملات **سحب جثث الموتى** من المساكن ، ودفنها في الأرض ، وهذا يشب مكاتب دفن الموتى ، ومن مهمات العاملات **جلب الغذاء** من خارج المملكة ، وهذا يشبه قطاع المستوردين ، ومن مهمات العاملات **زرع الفطريات** ، وهذا يشبه قطاع الزراعة ، ومن مهمات العاملات **تربية حشرات** ، تعيش النمل على رحيقها ، وهذا يشبه قطاع مربي الماشية .

النمل يبني المدن ، ويشق الطرقات ، ويحفر الأنفاق ، ويخزن الطعام في مخازن ، وفي صوامع ، بعض أنواع النمل يقيم الحدائق ، ويزرع النباتات ، وبعض أنواع النمل يقيم حروباً على قبائل أخرى ويأخذ الأسرى من ضعاف النمل المهزوم ، ولندقق في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

قال الله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

لقد أثبت الله جل جلاله من خلال هذه الآية للنمل الكلام ، ونوعاً من المعرفة ، للنملة مخٌّ صغير ، وخلايا عصبية ، وأعصاب لتقدير المعلومات والخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء وإلى أوكارها .

وإن النملة تملك نوعاً من التصرف العقلاني ، وهي من أذكى الحشرات ، وهي ترى بموجات ضوئية ، لا يراها الإنسان ، ولغة النمل كيماوية ، لها وظيفتان ، التواصل ، والإنذار ، فلو سحقت نملةٌ فإن رائحة تصدر عنها ، تستغيث بها النملات ، أو تحذرها من الاقتراب من المجزرة ، ولا تستطيع النملة دخول وكرها إلا إذا بينت كلمة السر . وللنمل جهاز هضم مدهش ، فيه فم ، ومري ، ومعدة ، وأمعاء وجهاز مص ، وجهاز ضخ .

يقول **الإمام علي** كرم الله وجهه :

« انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصُبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في

مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولٌ برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يغفلها المنان ، ولا يحرمها الديان ، ولو في الصفا اليابس ، والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر » .

* * *